

تفسير البحر المحيط

@ 401 تعالى : { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } . ومقام يحتمل المصدر والمكان .
فقال الفراء : مقامي مصدر أضيف إلى الفاعل أي : قيامي عليه بالحفظ لأعماله ، ومراقبتي إياه لقوله : { أَفَمَنْ هُوَ قَاتِلُهُمْ عَلَيْهِمْ نَفْسٌ بَرِّمًا كَسَبَتْ } . وقال الزجاج :
مكان وقوفه بين يدي للحساب ، وهو موقف □ الذي يقف فيه عباده يوم القيامة كقوله تعالى : { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ تَجْرُ مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ مِنْ عَذْوٍ لَا تَجْفَى عَنْهَا وَالَّذِينَ يُوقِفُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ عَذْوٍ لَا تَجْفَى عَنْهَا } وعلى إقحام المقام أي لمن خافني .
والظاهر أن الضمير في واستفتحوا عائد على الأنبياء : أي استنصروا □ على أعدائهم كقوله : { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ } ويجوز أن يكون الفتحة وهي الحكومة ، أي : استحكموا □ طلبوا منه القضاء بينهم . واستنصار الرسل في القرآن كثير كقول نوح : { فَأَفْتَحْ بِيْذِي وَبِيْذِهِمْ فَتَّحًا } وقول لوط : { رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ } وقول شعيب : { رَبِّ إِنِّي أَعْتَصَمْتُ مَا آتَيْتَنِي مِنْ رَبِّي وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } وقول موسى : { رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ آلِي بِغَيْرِ حِسَابٍ } وقول ابن زيد : الضمير عائد على الكفار أي : واستفتح الكفار على نحو ما قالت قريش : { عَجَّلْ لَنَا قِطْعًا } وقول أبي جهل : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة . وكأنهم لما قوي تكذيبهم وأذاهم ولم يعاجلوا بالعقوبة ، طنوا أن ما جاؤوا به باطل فاستفتحوا على سبيل التهكم والاستهزاء كقول قوم نوح : { فَأَوْثِقْنَا بِهِ رِجَالَهُمْ بِالْهَبَاقِ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا } وقوم شعيب : { فَأَسْقِطْ عَلَيْهِمْ الصَّيْلَ فَاصْبُرْ } وعاد : { وَمَا نَحْنُ بِمُغَضِّزِينَ } وبعض قريش : { فَأَمْطِرْ عَلَيْهِمْ سَحَابًا مَرْجَرًا } . وقيل : الضمير عائد على الفريقين : الأنبياء ، ومكذبيهم ، لأنهم كانوا كلهم سألوا أن ينصر المحق ويبطل المبطل . ويقوي عود الضمير على الرسل خاصة قراءة ابن عباس ، ومجاهد ، وابن محيصن :
واستفتحوا بكسر التاء ، أمراً للرسول معطوفاً على ليهلكن أي : أوحى إليهم ربهم وقال لهم : ليهلكن ، وقال لهم : استفتحوا أي : اطلبوا النصر وسلوه من ربكم . وقال الزمخشري :
ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي استمطروا ، والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة الرسول فلم يسقوا ، فذكر سبحانه ذلك ، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد ، وأنه يسقى في جهنم بدل سقيه ماء آخر وهو صديد أهل النار . واستفتحوا على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم انتهى . وخاب معطوف على محذوف تقديره : فنصروا وظفروا . وخاب كل جبار عنيد وهم قوم الرسل ، وتقدم شرح جبار . والعنيد : المعاند كالخليط بمعنى المخالط على قول من جعل الضمير عائداً على الكفار ، كأن وخاب

عطفاً على واستفتحوا . ومن ورائه قال أبو عبيدة وابن الأنباري أي : من بعده . وقال الشاعر : % (حلفت فلم أترك لنفسك ريبة % .
وليس وراء إلا للمرء مهرب .
%)

وقال أبو عبيدة أيضاً ، وقطرب ، والطبري ، وجماعة : ومن ورائه أي ومن أمامه ، وهو معنى قول الزمخشري : من بين يديه . وأنشد : % (عسى الكرب الذي أمسيت فيه % .
يكون وراء فرج قريب .
%)